الفصل الثاني عشر

وحيدة

بعد أن غادر الأطفال مع أبيهم بقيت وحيدة في المنزل، كان والداي يتصلان بي كل يوم يحثّانـي على الانتقال للعيش معهما، لكني أخبرتهما بأنني بخير. لم أرغب في العيش مع أناس آخرين يعيشون حياتهم الروتينية، كأن شيئًا لم يتغير، بعد أن رحل أطفالي ولم يعد هناك أمل في استرجاعهم. في بادئ الأمر لم أغادر منزلي بالمرة، وبقيت فيه مرتدية البيجامة، وأجلس وحيدة في العتمة، وكنت كثيرًا ما أتخيل أنني أسـمع ضـجة، وأكاد أنادي على أنس ليتوقف عن ضـرب أخته، أو أذكّر يوسـف بأن يكون حذرًا في التعامل مع عبود الصغير، لكن بعد ذلك كنت أدرك أنهـا مجرد تخيلات، وأبدأ بالبكاء، ولأمضـي وقتي الطويـل والموحش كنت أحيانًا أكتب قصصًـا وقصـائد، وكنت أضـع لها عناوين، مثل (فارس الظلام) و(لا تتوقفي عن منح حبك أيتها الفتاة الصغيرة) و(العام الجديد).

عندما مر أسـبوعان تقريبًا بدأت أشـعر بالتعـب من الجلوس وحيـدة والكتابة، وتجنب المشـي بالقـرب من النوافذ؛ حتى لا يرانـي الجيران، فقد عرفت أننـي إذا بقيت في المنزل، فسـوف أذبـل، ولـن أفعـل شـيئًا؛ لذلك بـدأت أفكر فيمـا يمكنني فعلـه لأخرج مـن المنزل، فاستحممت، وارتديت ملابسي، وذهبت لأمشي في الحي، وأنا حذرة ألا تلتقي عيناي عيني أي أحد يتفرج من نافذة منزله. ثم توقفت عند روضـة الأطفال التي أردت أن أرسـل روان إليها، وسـألت إن كانوا يحتاجون إلى سـكرتيرة أو معلمة؟، لكن لم يكن لديهم أي وظائف شـاغرة، فكرت في أن أنضـم إلى جامعة؛ لأحصل على درجة البكالوريوس، فربما يتيح لي ذلك أن أبدأ مـن جديد. لكن عندما ذهبت إلى بعض الكليات المحلية، دون أن أعرف حتى ماذا سـأدرس، اكتشفت بسرعة أنه لا يوجد أي خيارات لي لأحصل على دعم مالي. فذهبت أبحث عن وظيفة بدوام جزئي، وحاولت أن أحصل على قرض لأدفع تكاليف الدراسة، لكن أخبرني مدير البنك بأنه لا يمكنني الحصـول على قرض إلا إذا كنت أمتلك أرضًـا أو منزلًا مسجلًا باسمي، وهكذا لم يحالفني الحظ على الرغم من كل محاولتي أن أبدأ حياتي من جديد.

ثم بدأت أفكر في الرجوع إلى نيويورك، فقد حصلت على الجنسية الأمريكية في أثناء عيشي هناك مع حمزة، وكان معي جواز سفر، وإن استطعت أن أجد طريقة للوصول إلى هناك ربما يمكنني العيش مع أخي وزوجته بعض الوقت، ثم أدرس في كلية أو أجد وظيفة. لم أخبر حمزة أو والديّ بفكرتي هذه، فقد أردت أن أبقيها سرًّا حتى أفكر جيدًا كيف أنجح هذه الخطة؛ حتى لا تفشل مثل خططي السابقة.

ثم اكتشفت ما علي فعله، كنت أعاني منذ مدة ألمًا في الظهر، لكنه لم يكن ألمًا شديدًا، وتمكنت من تجاهله؛ لأني كنت أركز معظم تفكيري على مسألة الوصاية على أطفالي، لكن بعد أن أخذ حمزة الأطفال لم يتبقَّ لي الكثير لأفكر فيه، وكان الألم يزداد، كان عليّ أن أحضر لكل شيء قبل أن أخبر والديّ، وإلا فسيمنعاني من الذهاب، ويضعان حدًّا لأملي الجديد. فمشيت إلى المدرسة الثانوية التي تخرجت فيها لأحصل على نسخة من شهادتي الثانوية، وآخذها لمكتب ترجمة لأترجمها إلى اللغة الإنجليزية، وأختمها.

لم أَرَ المدرسة منذ تسعة عشر عامًا. لقد تغير كل شيء، فقد أضافوا طوابق عدة إلى المبنى، ووسعوا الشارع أمام المدرسة، وكانت الطالبات والمعلمات يمارسن رياضة الهرولة بالقرب من المدرسة، وقفت بضع دقائق في منتصف الشارع أشاهد كل التغيرات التي حدثت وأتذكر، ثم أكملت طريقي نحو المدرسة، كان الباب الأمامي مصنوعًا من الحديد، وكان كبيرًا وثقيلًا، فدفعته بكلتا يديّ، ودخلت المدرسة، كانت غرفة الحارسة لا تزال موجودة على الجهة اليمنى، فسألت السيدة التي تعمل هناك إن كان بإمكاني التحدث مع المديرة؟ بدأت تدلني على الطريق للمكتب، فابتسمت لها بأدب، قائلة:

«أعرف هذه المدرسة، كما أعرف نفسي، فقد كانت هذه مدرستي».

«آه، لا بد أنك هنا من أجل ابنتك!».

«لا، شكرًا لك أريد فقط أن أتحدث مع المديرة».

عندما وصلت إلى المكتب سألت عن السيدة هاجر؟، لكني اكتشفت أنها تقاعدت.

«أنا المديرة الآن اسمي.... كيف يمكنني أن أساعدك؟».

«نعم، لقد تخرجت في هذه المدرسة عام ١٩٨٤م، وأريد نسخة من شهادتي الثانوية».

أعطتني ورقة وقلمًا؛ حتى أكتب اسمي عليها، ثم نادت على سكرتيرتها، وأخبرتها بأن تذهب إلى الطابق الأرضي، وتبحث عن ملفي، وبعد ٢٥ دقيقة رجعت السكرتيرة، ومعها ملفي، أعطتني المديرة نسختين، فشكرتها، وغادرت.

قررت أن أذهب خلف المدرسة لأرى ماذا حدث لصخرة حبي أنا وأحمد. تمعنت في فناء المدرسة وأنا مدهوشة، كم كنت مشتاقة إلى أن أراها. كانت لا تزال موجودة هناك، لكنها الآن مستندة على جدار المدرسة؛ لأن المبنى قد توسّع كثيرًا. ذهبت لألقي نظرة أقرب على الصخرة لأرى حروفنا الأولى. فانهمرت الدموع من عينيّ، عندما رأيت بحرًا من أزواج الحروف تحيط بحرفي (ف) و(أ) اللذين حفرتهما أنا وأحمد قبل سنين عدة، فخلال التسعة عشر عامًا الأخيرة قام اثنا عشر زوجًا من العاشقين بتوثيق علاقاتهم الغرامية هنا خلسة. أخذت قلمًا من حقيبتي، وكتبت أحرفهم الأولى: (G &)، (Y & J)، (J & U)، (N & M)، (R & I)، (M & M)، (D & D)، (O & W)، (B & E)، (L & I)، (S & K)، (H & K)، (D). رسم كل زوج من هؤلاء العاشقين دائرة أو قلب حب حول حرفيهما الأولين، ما جعلني ذلك أبتسم، عندما فكرت في كل هؤلاء العشاق الشباب السعداء.

ابتسمت، ومشيت إلى الشارع لأستقل سيارة أجرة إلى مكتب الترجمة في وسط مدينة عمّان، وطلبت من الشاب الذي يعمل هناك أن يترجم شهادة الثانوية ويختمها، وبعد ثلاثين دقيقة حصلت على الترجمة الإنجليزية التي سأحتاج إليها للبحث عن وظيفة أو التسجيل في كلية، عندما أنتقل إلى الولايات المتحدة. كلفتني الترجمة دينارين، ثم ذهبت إلى مكتب السياحة والسفر؛ لأسأل كم تكلف كل من تذكرة الذهاب والإياب وتذكرة الذهاب إلى نيويورك؟ طبعت الموظفة بسرعة على لوحة مفاتيح الحاسوب، وقالت لي:

«١,٠٠٠ دينار ثمن تذكرة الذهاب والإياب إلى نيويورك، أو ٤٥٠ دينارًا ثمن تذكرة الذهاب فقط».

شكرتها، وقلت لها: إنني سأرجع، ثم استقللت سيارة أجرة إلى منزل والديّ، وقبل أن أترجل من سيارة الأجرة أخرجت جوازي سفري من حقيبتي، وطويت نسختي شهادة الثانوية، ووضعتهما داخل جوازي السفر، ثم وضعت جوازي السفر والنقود التي معي في جيب عباءتي تحسبًا من أن يرفض والداي السماح لي بالذهاب إلى نيويورك، فإذا أظهرت لهما جوازي سفري من المحتمل أن ينزعوهما من يدي، ويأخذوهما، وعندها لن أتمكن بالتأكيد من الذهاب.

قرعت الباب، فأجابني أبي. سلمت عليه: (السلام عليكم) وقبلت يده.

«فدوى! وعليكم السلام!».

لـم أخبر أبـي بأنني سأحضـر، لكنه كان سـعيدًا، عندمـا رأى أنني تحممـت، وغادرت المنزل. وعلى ما يبدو اعتقد عندما رآني أقف عند الباب أنني عدت لرشدي، وقررت أن أنتقل لأعيش معه ومع أمي. لذلك بدا مرتاحًا.

«إنه قرار صائب يا فدوى، أن تأتي، وتعيشي معنا».

لم أقل شيئًا في تلك اللحظة؛ حتى لا أزعجه، فأكملت طريقي إلى غرفة العائلة، وسلمت على أمي، وقبلت يدها.

«آه، إنها أنت يا فدوى».

قبل أن أنزع عباءتي وحجابي ذهبت إلى الحمام، وخبأت جوازي سفري داخل صدريتي، ثم عدت إلى غرفة العائلة، وجلسـت مع والديّ. كانا يتكلمان عن شـيء ما، وكنت أومئ برأسي دون أن أعيـر انتباهًـا لما يقولان. فخطة الانتقال إلى نيويورك هـذه بدت فكرة ممتازة قبل أن أخبر والديّ بها. لكن كان عليّ أن أخترع سببًا وجيهًا يبرر رغبتي في الذهاب إلى هناك وحدي بدلًا من أن أعيش مع والديّ. كنت خائفة من ردّة فعل أبي بالذات.

ظلت أمي تنادي علي: «فدوى! فدوى!».

«نعم؟».

«لقد أخرجت بعض اللحم من الثلاجة. اذهبي، وأعدي ما يحلو لك لنأكله على الغداء».

أطعتها، وذهبت إلى المطبخ لأعد الطعام. وبعد لحظات عدة جاءت أمي للمطبخ لتسألني إن كنت في حاجة إلى مساعدة؟، ثم سألتني مترددة عن أطفالي. لم يكن لدي الكثير لأخبرها عنهم؛ لأنه مضى شهران ونصف الشهر منذ أن رحلوا. كنت أتصل بهم كلما أستطيع، لكن لم يكن هناك الكثير ليخبروني به على الهاتف. لم أرد الخوض في كل هذا، لذلك غيّرت الموضوع بسرعة.

«هل مازال لديك بعض ذهبي يا أمي؟».

«نعم، تبقى سوار واحد».

«هل بإمكانك إعطائي إياه يا أمي؟».

ذهبت أمي إلى الغرفة المجاورة لتجلب السوار، ثم رجعت إلى المطبخ، وأعطتني إياه. ولحسن الحظ لم تسألني: لماذا أحتاج إلى هذا السوار الآن؟

جاءت نعمة وسميرة مع أطفالهما في ذلك المساء ليتناولوا الغداء. أعددنا (المقلوبة)، وهي طبق فلسطيني يتكون من الدجاج والباذنجان والأرز. وبعد أن أنهينا طعامنا أخبرتهم بأنني أريد معالجة ألم الظهر الذي أعانيه، لكن ليس لدي تأمين صحي في الأردن؛ لذلك أخطط للذهاب إلى نيويورك. لم أكن أعرف إن كنت أستطيع الحصول على علاج طبي في نيويورك، لكني لم أذكر ذلك لهم. حاولت أن أبدو هادئة قدر المستطاع على أمل أن يبدو الأمر منطقيًّا ودون تهديد، كما خططت له أن يكون.

لم يتقبل أبي الفكرة كما كنت أتمنى، فقد غضب غضبًا شديدًا، لدرجة أنني لم أَرَه غاضبًا هكذا من قبل.

«قلت: إنك تريدين البقاء في المنزل وحدك، فوافقت على الرغم من أن قرارك لم يعجبني! والآن أنت تخبريني بأنك ستغادرين الأردن، وتذهبين إلى نيويورك وحدك؟! أنت لست مطلقة، وما زلت على ذمة زوجك! فلا تستطيعين المغادرة هكذا بكل بساطة دون أن تقولي لزوجك أولًا! وماذا سيقول جيراننا وعائلتنا، عماتك وأعمامك، عندما يسمعون بالأمر؟ سوف يعتقدون أنني جعلت ابنتي تعيش وحدها، وتعمل ما يحلو لها! لن أسمح لك بفعل هذا لعائلتنا!».

كانت حقيبتي معلقة على الكرسي، فمسكها أبي، وأخرج منها بغضب الغرض تلو الآخر، ورماهم على الأرض.

«أين جواز سفرك يا فدوى؟».

«ليس معي يا أبي».

لم يصدقني، وجعلته إجابتي أكثر غضبًا. لم يكن هذا الرجل الذي يقف أمامي هو الأب اللطيف والحنون الذي عرفته دائمًا، فلم يكن منطقيًّا في غضبه المتزايد. وبعد أن رمى حقيبتي على الأرض ذهب إلى المطبخ، والتقط سكينًا تركته أمي على المنضدة، ثم رجع.

«سوف أقتلك يا فدوى، إن غادرت البلد. أتسمعينني؟! سوف أقتلك!».

حالت سميرة وأمي بيني وبين أبي خوفًا من أن ينفذ تهديده. أخذت سميرة أبي إلى غرفة المعيشة، وتحدثت معه بلطف حتى هدأ. وعندما عاد لرشده أخبرته أمي برفق بأنني أريد الذهاب لنيويورك لأعالج ظهري فقط.

«زوجها لا يرسل لها المال، ولن تستطيع أن تفعل أي شيء حيال الأمر هنا. لكنها مواطنة أمريكية، ويمكنها الحصول على العلاج مجانًا هناك».

بعد أن استمع أبي لكليهما مدة ساعة غيّر رأيه، ووافق على ذهابي إلى نيويورك. أغلقت عينيّ برهة، وشكرت الله. استخدمت هاتف والديّ لأتصل بمحاميّ، وأعلمته أني مغادرة، ثم اتصلت بأخي الأكبر (سام) في نيويورك لأطلب منه المكوث عنده هو وسامية.

«بالطبع يا فدوى، يمكنك البقاء عندنا، لكن قبل أن تأتي احصلي على تأشيرة لأمي؛ حتى تأتي معك، كنت أعتزم أن أحضرها لزيارتي، وهذه هي الفرصة الأمثل».

وفي اليوم المقبل أخذت أمي إلى إستوديو التصوير المجاور ليلتقطوا لها صورًا خاصة بالتأشيرة، ثم أخذتها للمنزل حتى تستريح. وبعد أن ساعدتها على الاستلقاء على السرير أخذت جواز سفرها الأردني إلى السفارة، وسألت إن كنت أستطيع الحصول على تأشيرة لها دون أن أحضرها للسفارة؟ كنت قلقة من أن يطلبوا رؤية أمي شخصيًّا، لكن تحققت الموظفة التي تجلس وراء النافذة من جوازات سفرنا، وبعد بضع دقائق ختمت جواز سفر أمي، موافقة بذلك على منح تأشيرة مدتها خمس سنوات.

دفع سام ثمن تذكرة الطائرة لأمي. كانت تذكرة ذهاب فقط؛ لأننا لم نعرف كم بالضبط سنبقى في نيويورك، كنت آمل أن يساعدني سام على دفع ثمن تذكرتي أيضًا، لكن لا يهم. فقد كان معي بعض المال من النفقة التي يدفعها زوجي وسواري الذهبي الأخير الذي بعته لأدفع ثمن التذكرة إلى نيويورك. تبقى معي مبلغ صغير بعد أن دفعت ثمن التذكرة، فوضعته في عباءتي؛ لآخذه معي.

في ٣٠ تشرين الثاني ٢٠٠٢م سافرت أنا وأمي إلى مطار (لا جواردیا). رجعت أرتدي حجابي العادي (الذي لا يغطي وجهي) والعباءة. كان ذهني مشغولًا بالتفكير كيف ستكون الحياة الآن. فلم أكن أعرف إن كان أخي وزوجته سيشجعانني، ويدعماني حتى أقف على

رجلي، أو إذا كانا سيجعلانني بائسة بمراقبتي ومساءلتي دائمًا كما فعل أبي. ولأني الآن لا أعيش مع زوجي بدا أن الجميع ينظر إلي نظرة مختلفة، كما لو أنهم يعتقدون أنني أنتظر حتى يديروا ظهورهم لأفعل شيئًا معيبًا، لقد نسوا أنني لم أختر ما حدث لي.

رحب بنا سام، وساعدنا بحمل حقائبنا، ثم اشترى طعامًا هنديًّا لنتناول العشاء في المنزل، وأغلقت سامية باكرًا متجر الإلكترونيات الذي يملكانه. كانا يعيشان في شقة في الطابق الأول تتكون من غرفة ضيوف وغرفة نوم ومطبخ وحمام وغرفة طعام ومكتب صغير كان فيه البريد ملقى هنا وهناك. كانت الشقة تتكون من غرفتين، لكن جدرانهما الكثيرة تشعرك بالاختناق، وكان فيها شرفة صغيرة أيضًا، لكن بابها كان مقفلًا دائمًا. دخلت هذا المحيط الجديد، وأنا عازمة أن أعتاد على المساحة الصغيرة، فقد كانت هذه أول خطوة في طريقي لتحقيق مستقبل أفضل.

بعد أن أنهينا تناول الطعام والصلاة قالت سامية لأمي: «لا بدّ أنك وفدوى متعبتان يا عمتي، دعيني أريك أين ستنامان. سنغادر المنزل عند الساعة ٩:٣٠ صباحًا لنفتح المتجر».

نمت أنا وأمي في غرفة الطعام الصغيرة، حيث كان فيها سرير واحد وفرشات على الأرض، نامت أمي على السرير، وأنا على الفرشة، كان الوقت منتصف الليل، عندما ذهبنا للنوم، وكنت متعبة جدًّا، وكان علينا الاستيقاظ عند الساعة ٥:٠٠ صباحًا لنصلي. لم أكن أعرف كيف سأتمكن من الاستيقاظ في ذلك الوقت، لكن كانت لأمي مقدرة خارقة على الاستيقاظ في ذلك الوقت كل يوم دون ساعة منبه، وعندما أنهينا الصلاة عدنا لننام حتى الساعة ٧:٠٠ صباحًا. ثم ذهبت إلى المطبخ لأعد بعض الحليب والعسل والبسكويت لأمي.

استيقظ سام وسامية عند الساعة ٨:٠٠ صباحًا. أعدت سامية الفطور، وطبخت طعام الغداء لنأخذه معنا إلى المتجر. قاد سام الشاحنة الصغيرة إلى المتجر، سامية تجلس في المقعد الأمامي وأنا وأمي في المقعد الخلفي، ثم فتحا المتجر وأضاءا الأنوار، وأطفأا جهاز الإنذار. أحضرت كرسيًّا أمام المتجر لتجلس عليه أمي، وبدأت أساعد سام وسامية على التنظيف، نفضت الغبار، وكنست سامية. وعند الساعة ١٠:٣٠ صباحًا جاء للمتجر رجل هندي يستأجر مساحة صغيرة من متجر أخي ليبيع الهواتف. مع أنني لا أتذكر اسمه إلا أنه كان لطيفًا معي، وما زلت أتذكره بوصفه واحدًا من أوائل الناس الذين حاولوا مساعدتي على بدء حياة

جديدة. عرفني سام أيضًا أنا وأمي إلى شاب مكسيكي عمره ثمانية عشر عامًا كان سام يدفع له ٧,٥٠ دولار في الساعة ليعمل في المتجر. شعرت بالملل من التنظيف فقط، لكنها كانت الخطوة الأولى. فلم أرد قول أي شيء يدل على جحود.

قبل تناول طعام الغداء سألت سامية: أين يمكنني الحصول على تأمين صحي؟

«اذهبي إلى مستشفى الجامعة غدًا، فسوف يقولون لك ما عليك فعله. هناك مستشفى يبعد فقط بضع صفوف من البيوت عن المتجر».

وفي اليوم المقبل، وبينما كان سام وسامية في متجرهما ذهبت مشيًا إلى المستشفى. لكن لم يعرف أحد هناك الى أين يرسلني، وأمضيت معظم اليوم أمشي من طابق لطابق ومن مكتب لمكتب، وفي النهاية أخبرني أحدهم بأن أعبئ استئمارة، وأرجع في اليوم المقبل.

«هل كان لديك تأمين صحي هنا يا سيدة حمدان؟».

«لا أعرف، فقد كانت جميع السجلات الطبية مع زوجي، وكان يرفض أن يريها لي».

عبأت الاستئمارة، وكتبت فيها عنوان أخي ورقم هاتفه؛ حتى يتصلوا بي. ثم غادرت ورجعت إلى المتجر. كان الوقت بعد الظهر، عندما التقيت سام وسامية وأمي، وأخبرتهم بما حدث.

فكرت سامية لحظة، ثم سألتني: «هل تخططين يا فدوى، لفتح حساب اعتماد باسمك؟ يمكنك فتح حساب بنكي بينما أنت هنا، فسوف يساعدك هذا على الوقوف على قدميك».

شكرتها على نصيحتها، وفي اليوم المقبل مشيت معها إلى البنك. كان معي ٣٠٠ دولار فقط، ولم أعرف إلى كم أحتاج لأفتح حسابًا. لكن أخبرني رجل يعمل في (سيتي بنك) بأنه يمكنني أن أفتح حساب توفير بمبلغ ٥٠ دولارًا، لذلك قررت أن أفعل ذلك، وأحتفظ بباقي نقودي، لم أكن أملك هاتفي الخاص، لذلك وضعت عنوان ورقم هاتف أخي الجوال في الاستئمارة.

لكني أردت أن أكون أقل اعتمادًا على أخي، فحين رجعت إلى المتجر، سألت الشاب الهندي إن كنت أستطيع الحصول على هاتف جوال خاص بي؟ فتحقق من رصيدي الائتماني، ووجد أن عدد نقاطي الائتمانية منخفض جدًّا (فهذا ليس غريبًا إن أخذنا في الحسبان عدم

امتلاكي بطاقة ائتمانية من قبل وفتحي حساب توفير قبل أقل من ساعة). لذلك يمكنني فقط شراء هاتف جوال مدفوع مسبقًا. نظر إلي مرتبكًا قليلًا، وقال:

«لكن سام وسامية يشتريان هاتفًا جديدًا كل شهرين، ومن المؤكد أن عندهما هاتفًا قديمًا لا يحتاجان إليه. أنا متأكد أنهما سيعطيانك إياه».

كنت خجلة من أن أطلب منهما أكثر مما أعطياني إلى الآن، بعد أن سمحا لي بالبقاء عندهما، نادى الشاب على سامية نيابة عني، وسألها:

«هل مازال لديك الهاتف الذي اشتريته مني الشهر الماضي والذي لا تستعملينه؟».

«نعم».

«هل يمكنك إعطاؤه فدوى؛ لتستخدمه فقط؟ فهي لا تستطيع شراء واحد؛ لأنه ليس لديها رصيد ائتماني حتى الآن».

ذهبت سامية إلى آخر المتجر لتبحث عن الهاتف في غرفة المخزن.

ثم قال لي الشاب الهندي: «يستطيع أخوك أن يحصل على هاتف باسمه، فهو يمتلك عملًا تجاريًّا ورصيده الائتماني جيد. لماذا لا تذهبين، وتطلبين منه؟».

لم أقل شيئًا، لكن لا بد أنه عرف من ملامح وجهي أنه من المستحيل أن أطلب من أخي ذلك؛ لذلك ساعدني مرة أخرى، وسأل سام وسامية إنا كانا يستطيعان أن يشتريا هاتفًا جوالًا لي باسمهما، إلى أن يتسنى لي الحصول على رصيد ائتماني؟ نظرا إليه نظرة ريبة، كما لو أنه طلب منهما أن يبيعا المحل من أجلي، شيء من هذا القبيل. وقفا هناك صامتين بضع لحظات، وفي النهاية أذعنت سامية، واشترت هاتفًا، لكنهما لم يضعا فيه فلسًا واحدًا؛ لأستخدمه.

باعني الشاب الهندي بطاقة هاتف ثمنها ٤٠ دولارًا، وتمتم بهمس: كم أنتما بخيلان يا سام وسامية!

«لماذا لا يساعد أخته؟ إنه يملك متجرًا ولديه المال».

لم أقل شيئًا، فلا يمكنني مناقشة مشكلات عائلية مع غريب.

عندما حصلت على الهاتف اتصلت بأطفالي في السعودية. كنت سعيدة جدًّا بالتكلم معهم، وكنت أتخيل عندما أغمضت عينيّ أنهم هنا معي، تحدثت مع خمستهم والدموع في عينيّ، عندما سمعت أصواتهم يخبرونني عن مدرستهم وواجباتهم المنزلية وهواياتهم، وعندما انتهت المكالمة تحققت من رصيدي، فأدركت أنني أنفقت ٢٠ دولارًا على مكالمة واحدة. أخبرت الشاب الهندي بأن تعريفة المكالمات هذه لن تفيدني؛ لأنني سأتكلم مع أطفالي مرتين في الشهر على الأقل. كان أخي يبيع بطاقات هاتف من فئة ٥ و١٠ دولارات، التي ستقطع المكالمة قبل أن يتسنى لي أن أنفق أكثر. لكن جعلني أخي أدفع ثمن هذه البطاقات. فعلى الرغم من أني كنت أنظف له المتجر كل يوم كان يسمح لي بالبقاء في شقته مجانًا، وبحسب اعتقاد سام كنت محظوظة؛ لأن لي أخًا كريمًا مثله. أنا حساسة جدًّا، ولا أحب أن أطلب المال أو المساعدة، لذلك شكرت أخي، ودفعت له ثمن البطاقات.

أمضيت بقية اليوم في المتجر، وأنا أشعر بالضياع، لم أكن أعرف ماذا يخبئ لي اليوم أو الأسبوع أو الشهر المقبل، وكيف سأعول نفسي، وماذا سأفعل حتى لا أفقد صوابي. وفي المنزل جلست وحدي في غرفة النوم، حيث أمكث أنا وأمي. تناولت طعام العشاء، وشربت الشاي مع عائلتي، لكن بعد ذلك استأذنت بالانصراف. كانوا يقولون لي: «تعالي اجلسي معنا! تعالي اجلسي معنا!» وهم يشاهدون التلفاز، لكني لم أرغب في الاستماع لثرثرة التلفاز والضحكات المتقطعة لعائلتي التي كانت تقض مضجعي. فقد كان عليّ البقاء وحدي؛ حتى لا يصيبني الذعر مما سيحدث لي، وكنت في الوقت الفاصل بين تناول الغداء ومساعدة أمي على الاستحمام واستخدام المرحاض أجلس وحدي، وأرغم نفسي على الخروج من حالة الخمول، وأحاول التركيز على إعداد خطة. كان سام وسامية يعتقدان أنني سأظل هناك شهرًا أو اثنين، لذلك لم يكن لدي وقت لأضيعه.

بعد أن أمضيت أسبوعًا في تعبئة طلبات التأمين الصحي اتصل شخص من المستشفى بأخي، وطلبت منه أن يخبرني بأن أرجع في صباح اليوم المقبل. وفي اليوم المقبل استيقظت باكرًا، وصليت وأعددت بعض الحليب الساخن لأمي. ثم انتظرت سام وسامية حتى جهزا أنفسهما، وذهبت إلى المتجر معهما. ومن هناك اتجهت للمستشفى، وعندما وصلت تحدثت مع السيدة نفسها التي أعطتني الطلب لأعبئه. وبعد أن تحققت على الحاسوب من اسمي ورقم ضماني الاجتماعي أخبرتني بأنني مؤهلة للحصول على التأمين الصحي، وساعدتني موظفة

الاستقبال على تحديد موعد مع الطبيب ليفحص ظهري. شعرت بالراحة، ورجعت إلى المتجر أزفّ الخبر للجميع، فهنأني أخي، قائلًا:

«هـذا خبـر رائع يا فـدوى! أنا أرحب بك بالبقـاء معنا في أثنـاء علاجك. كم من الوقت سيستلزم ذلك؟».

«لم يقولوا لي بعد».

لكـن لـم أكن أنوي أن أرجع لـلأردن مع أمي بعد انتهاء علاجي. لم أخبر سـام بما كنت أفكر فيه، لكني كنت أعرف أنه إذا رجعت للمنزل، فسوف ينتهي بي المطاف بالعيش مع والديّ بقية حياتي.

وبينما كنت أفكر في ماهية الوظيفة التي سأحصـل عليها، بدأت أسـاعد سـام وسـامية أكثر في المتجر، فقد كنت أرحب بالزبائن، وأبيعهم أسـطوانات مدمجة وبطاقات اتصال. لم يكن في المتجر حاسـوب؛ لأن سام وسـامية لم يكونا يعرفان كيف يستخدمانه؛ لذلك عرضت عليهما أن أعلمهما إذا اشـتريا واحدًا. كانت سـامية تطبخ الغداء قبـل أن نغادر المنزل، وكنا جميعًا نتناوله في المتجر. أخبرت سام وسامية أيضًا بأنني أريد البحث عن مكان لأتعلم اللغة الإنجليزية في أثناء خضـوعي للعلاج الطبيعي. فنظرا لبعضهما، وهم مستاءان، لكنهما أجابا ببساطة بأنهما لا يعرفان أي مكان قريب.

كان أقصـى أولوياتي العثور على وظيفة أحصـل منها على دخل حقيقي. لم أكن متأكدة من أين أبدأ بالبحث، لذلك بدأت أمشي في الحي لأرى ما المحالّ الموجودة هناك، فربما أجد فـي مكان عبارة (مطلوب موظفون) أو شـيئًا آخر يمنحني فكرة عما سـأفعله. ثم رأيت كثيرًا من الأطفال يمشـون، ويضعون نشـرات إعلانية على جدران موقف الحافلات ونوافذ المحالّ، فذهبت لأرى ماذا يعلنون، واكتشـفت أن هناك مركزًا قريبًا يقدم دروس لغة إنجليزية مسائية عند الساعة ٨:٠٠ مساءً. ففكرت في أنه إذا ذهبت إلى ذلك المركز فسوف تنتهي الحصة في الوقت الذي يغلق فيه أخي متجره عند الساعة ١٠:٠٠ مساءً.

كنـت متعبة وضـعيفة معظم الوقت بعد أن بـدأت تلقي العلاج الطبيعي، لكني انضـممت إلى دروس اللغة الإنجليزية، فشـعرت بالحماسـة لأنني أتعلم شـيئًا، ولدي واجبـات منزلية أركز عليها بدل التفكير في المستقبل الفارغ. فقد كنت في حاجة إلى شيء يجعلني أبتسم من حين لآخر؛ حتى

تتوقف أمي عن النظر إلي بحزن وسامية قررت أن تذهب إلى حصص اللغة الإنجليزية معي. وعندما انضمت للمركز تم وضعها في مستوى متدنٍّ، لذلك كان عليها أن تذهب في الفترة الصباحية، لكني أخبرتها بأنني سأشرح لها أي شيء لا تفهمه. كان موعد حصتها من الساعة ١١:٠٠ صباحًا إلى ١:٠٠ مساءً، لكن عندما أخبرت سامية أخي عن تلك الحصص استشاط غضبه.

«ومن سوف يساعدني على المتجر يا سامية؟».

لمست كتفه برفق، وقالت له: «الحصة تدوم ساعتين فقط، وبعدها سأرجع حالًا للعمل».

التفت إلي قائلًا، ووجهه محمر غضبًا:

«كل هذا بسببك يا فدوى! تريدين تعلم الإنجليزية، والآن سامية تريد الشيء نفسه، كنت أعرف أن تأثيرك لن يكون تأثيرًا جيدًا فينا».

حاولت أن أدافع عن نفسي، وقلت: «لكن لم أقل لها أن تتعلم الإنجليزية. هي قررت وحدها أن تفعل ذلك».

نظرت سامية نظرة انزعاج لأخي. أما أمي فهدأت سام، وعرضت عليه أن تخدم الزبائن بنفسها في غياب سامية. كان من الصعب عليها أن تقف على رجليها، لكن أخي جعلها تعمل على الرغم من ذلك، فقد كانت هذه هي الطريقة الوحيدة لتغادر سامية، وتحضر حصص اللغة الإنجليزية.

أمضيت أيامي مدةً على هذه الوتيرة، أمشي مع سام وسامية إلى المتجر، ثم أتوجه إلى المستشفى لتلقي العلاج الطبيعي (أحيانًا في الصباح وأيامًا أخرى في المساء) ثم أرجع للمتجر لأنظف، وأساعد الزبائن. وكنت في المساء أذهب إلى الحصة، ثم ألتقي لاحقًا سام وسامية، وأمشي معهما للمنزل.

وفي مساء أحد الأيام جاء رجل يدعى (أرون) إلى حصة اللغة الإنجليزية ليخبرنا عن كلية في منطقة كوينز اسمها (كلية برامسون أورت). استمعت بانتباه شديد، فمن المحتمل أن تكون هذه هي فرصتي للحصول على شهادة جامعية حقيقية تمكنني من فعل شيء أفضل بدلًا من تنظيف متجر أخي. وبعد أن قدّم نفسه لكل الطلاب في الصف، وأعطاهم بطاقته أسرعت نحوه لأتحدث معه.

«عفوًا يا سيدي، هل يمكنني أن أطرح عليك سؤالًا؟ هل يمكنني أن أنضم الى الكلية إن كنت حاصلة على شهادة الثانوية من الخارج؟».

كان معي نسخة من شهادة الثانوية العامة المترجمة، وقال: إن هذه ليست مشكلة شرط أن يتم قبولي في الكلية، ثم أخذ بطاقته مني، وكتب عليها اسم سيدة تدعى (أفيفا) ووعدني بأنها ستساعدني.

رجعت إلى متجر أخي، وانتظرت حتى رجعنا للمنزل لأخبر عائلتي بخطتي. نظر جميعهم إلى بعضهم، ثم إلي عابسين. لاحظت ردّة فعلهم على خطتي، لكني تجاهلتها، وقلت:

«بالطبع يجب أن أرى أولًا إن كنت سأقبل أم لا».

نظر سام وسامية إليّ بدهشة. كانت أمي صامتة، وفي النهاية تحدث سام، قائلًا:

«أنت تأخذين حاليًّا حصصًا في اللغة الإنجليزية، أليس هذا كل ما تريدين تعلمه؟».

أخذت نفسًا عميقًا، وأعلنت خططي، وكلي أمل ألا يقول أحد شيئًا يحطم أحلامي.

«لا. أريد أن أدرس لأحصل على شهادة متخصصة، وأريد أن آخذ جميع الحصص الاعتيادية التي يأخذها الناس في الكلية».

«لكن هل تعلمين عن برنامج الحصص، ومتى عليك أن تذهبي للكلية؟ هناك حصص في الصباح وبعد الظهر والمساء. كيف ستذهبين الى هناك؟».

اعتقد سام أن بعض المشكلات البسيطة سوف توقفني.

«سوف أتعلم كيف أستقل المواصلات العامة».

ترددت أمي لحظة، ثم تكلمت، كانت أمي دائمًا تشجعنا على طلب العلم، لكن كان موقفها مختلفًا هذه المرة، خاصة بعد أن سمعت ردّ أخي.

«أستعودين للكلية في هذا العمر يا فدوى؟ لكن لماذا؟ ابنك يوسف في المدرسة الثانوية الآن، وسيذهب للكلية عما قريب، وسيبدو الأمر سخيفًا للناس، عندما يرون أمًّا وابنها يذهبان إلى الكلية في الوقت نفسه! وأيضًا ليس هناك أحد يذهب معك، ماذا سيقول الناس عندما يرونك عائدة للمنزل في وقت متأخر من الليل؟».

كنت أتعذب عندما رأيت أمي منزعجة جدًّا هكذا، لكن كان علي فعل شيء لأحسن نفسي، وإلا فسأجنّ. كنت أرغب بشدة في أن أتوصل لطريقة أفهمهم بها موقفي.

«أريد فقط أن أحاول يا أمي، سأذهب غدًا، وسأرى ما سيحصل، فربما لن يقبلوني، والآن عن إذنكم، أنا ذاهبة للنوم».

لم أستطع النوم جيدًا في تلك الليلة، فقد ثبطت ردّة فعل عائلتي عزيمتي، وكنت خائفة أن ترفضني الكلية لسبب أو لآخر، كما فعلت الكليات في الأردن. وبعد أن عرفت أن عائلتي لا تريدني أن أذهب إلى الكلية أو أحصل على عمل آخر أصبحت آخذ جميع وثائقي الشخصية معي لكل مكان: جواز السفر، وشهادة الميلاد، والهوية، وشهادة الثانوية. فلم أكن أعرف متى سيتغير موقف أحدهم من التعبير عن ازدرائه لخططي إلى اتخاذ الإجراءات لمنعي، فيمكن لأحدهم في أي لحظة أن يأخذ وثائقي مني، ويجعلني معتمدة عليهم للأبد.

على الرغم من عدم دعم عائلتي لي قررت أن أذهب للكلية؛ لأرى إن كنت أستطيع الانضمام إليها. وبعد ذلك سأكمل بحثي عن وظيفة، كان لدى سام سيارة، لذلك لم يستخدم مترو الأنفاق أبدًا، ولم يستطع أن يخبرني كيف أستخدمه. كنت خائفة من مترو الأنفاق؛ لأني أرتدي حجابًا، فقد سمعت أن كثيرًا من المسلمين تعرضوا للتهديد في مترو الأنفاق بعد الحادي عشر من أيلول، لم أكن أرتدي غطاء الوجه، لكني كنت قلقة أن يلاحظ أحدهم ثوبي، ويحاول إيذائي، إلا أنني كنت أرغب بشدة في أن أتحرى عن الكلية. وهكذا نزلت الدرجات المؤدية إلى محطة مترو الأنفاق المجاورة، وأنا أحاول جاهدة ألا أبدو خائفة، ثم ذهبت إلى الشباك لأسأل عن التذاكر.

«أتريدين تذكرة ذهاب أم تذكرة ذهاب وإياب؟».

لم أفهم ما قال، فعضضت على شفتي لأمنع نفسي من البكاء.

«ممم، ذهاب وإياب». أريته العنوان على البطاقة التي أعطاني إياها الرجل (أرون).

«آه، نعم. استقلي ذلك القطار هناك، واذهبي به إلى شارع جاكسون هايتس، ثم استقلي القطار (ف) وتوقفي عند الشارع ٧١ بعد ذلك عليك أن تمشي صفين أو ثلاثة من البيوت لتصلي إلى الكلية».

أعطاني خريطة مدينة نيويورك مرسومًا عليها كل مسارب مترو الأنفاق، فشكرته واستقللت القطار. وقفت في الممر، واستمعت جيدًا لصوت السماعة الذي يعلن الوصول لكل موقف، وكنت قلقة ألا أترجل من القطار في المكان الصحيح. وعندما وصلت الشارع ٧١ مشيت بقية المسافة إلى كلية (برامسون أورت) بعد أن أوقفت كثيرًا من الناس في الشارع لأسألهم عن الاتجاه؟

عندما دخلت الكلية أرشدتني شابتان عند الشباك الأمامي إلى منطقة الانتظار. كانت نبرة صوتيهما هادئة وودية، فأشعرني ذلك بالطمأنينة قليلًا، ثم طلبت أن أقابل (أفيفا) التي أعطاني السيد أرون اسمها.

وبينما كنت أنتظر مقابلتها، فكرت فيما سأفعله إن قبلت، بالطبع يمكن ألا يحدث ذلك، لكن ماذا لو حدث؟ كيف سأدفع التكاليف؟ كم من الوقت سيسمح لي سام وسامية بالبقاء في منزلهما؟ فقد عرفت أنهما يعتقدان أنه لا يجب عليّ التفكير في العودة للدراسة، وماذا لو رأى الشخص الذي سيقرر قبولي حجابي، ورفض انضمامي للكلية؟

لكن بعد قليل نادت علي امرأة روسية (التي كانت هي أفيفا) عند شباك الاستقبال. سألتها إن كانت شهادة الثانوية الأردنية كافية، أو أن عليّ إعادة الدراسة الثانوية؟، لكنها طمأنتني بأن شهادتي كافية، ثم بدأت بمعالجة وثائقي التي أحضرتها معي: جواز السفر، والهوية، وشهادة الثانوية، وشهادة الولادة. وقفت متوترة، بينما كانت تنظر لكل شيء، وحاولت أن أعرف من ملامح وجهها فيما تفكر. وفي النهاية نظرت إلي، وأخبرتني بأن أرجع في اليوم المقبل لأخضع لامتحان دخول.

«لكن لا تخافي، لن يكون صعبًا، تعالي غدًا عند الساعة ٩:٠٠ مساءً للامتحان. ستكون هناك مجموعة أخرى من الطلاب».

أخبرتني أيضًا بأنني أستطيع التقدم للحصول على قرض مساعدة مالية. بدأت أشعر بالحماس مرة أخرى، عندما فكرت في أن هذه الخطة يمكن أن تنجح، ثم رجعت عن طريق مترو الأنفاق إلى متجر أخي، وأخبرته هو وسامية عن تجربتي في الكلية، كانا لا يزالان غير متحمسين للفكرة، لكن بدا أنهما أكثر تقبلًا.

وفي صباح اليوم المقبل عدت إلى كلية (برامسون أورت). كان جميع الممتحنين طلابًا دوليين، باستثناء اثنتين أمريكيتين. أجلستنا امرأة في غرفة الصف، وأعطتنا أوراق الامتحان، ثم أخبرتنا بألا نتسرع أو نقلق. وحالما حصلت على الورقة بدأت بإجابة الأسئلة بأسرع ما يمكن؛ حتى لا أنسى الأجوبة. كانت أسئلة الامتحان تدور حول اللغة الإنجليزية والرياضيات والعلوم والتاريخ الأمريكي، ثم طُلب مني كتابة فقرة عن نفسي. وعندما انتهينا جميعًا أخبرتنا المرأة بأنه يمكننا المغادرة، لكن يسمح لنا بالانتظار، حتى خروج النتائج إذا أردنا أن نعرف فورًا كيف كان أداؤنا. فانتظرت، وتحدثت مع امرأتين إيرانيتين خضعتا للامتحان، وسألتهما: ماذا ستدرسان؟ لكن لم نكن نفكر في أي تخصص، فكل ما عرفناه هو أننا نريد أن نذهب إلى الكلية، وبعد لحظات قليلة من العذاب علمت أنني اجتزت امتحان الدخول، لكن علي الانضمام للمستوى السادس للغة الإنجليزية، وهو أعلى مستوى قبل أن أبدأ مواد التخصص، وقبل أن أغادر سألت مرة أخرى عن المساعدة المالية؟ لكنهم أخبروني بألا أقلق حول هذا الأمر.

شعرت شعورًا متزايدًا بأن خططي سوف تنجح، فرجعت إلى المتجر، وأخبرت سام وسامية عن التفاصيل. أخبرتهما بسعادة غامرة بأن عليّ أن أجد عملًا بدوام جزئي، وأنني من المحتمل أن أحصل على مساعدة مالية، لكن بالطبع ما زلت أحتاج إلى مال لأدفع ثمن المواصلات والهاتف؛ حتى أتصل بأولادي. كنت آمل أن يعرض علي سام وسامية العمل في المتجر معهما براتب شهري، فقد كنت واثقة من أنهما يستطيعان أن يدفعا لي ذلك المبلغ الصغير الذي أحتاج إليه لأغطي هذه النفقات، لكنهما استمعا بصمت.

«كيف أحزن والله ربي، ابتسم، ولا تيأس، وكن قويًّا».